



الهوية الدفاعية لعلم الكلام

د. أحد فراملكي

أولاً: الخصائص الرئيسية للأضلاع المعرفية في علم الكلام

١- الكلام صناعة:

يؤكد الفارابي وكل من يتبنى التصور الدفاعي لعلم الكلام على صناعيته؛ فالفارابي يفتح تعريفه بتعبير «صناعة» والتي تعد بمثابة الجنس في رسم الكلام. واعتبر البعض الصناعة في العلم والمعرفة، وفسّروا الصناعية بمعنى نفي الهوية العلمية عن الكلام، واستناداً إليه شبهوا الكلام بفن الجدل وقالوا: كما أن الجدل فن ومقدمة وليس علمًا كذلك فالكلام فن الدفاع عن التغور العقائدية وليس علمًا نظرياً.

وقد فسر البعض سبب تسمية الكلام بهذا الاسم على هذا الأساس^(١).

إن صناعية الكلام تأكيد على هويته الآلية وليس في ذلك أية منافاة مع علميته، ويمكن توضيح المراد من اصطلاح الصناعة في اصطلاح الفارابي بناءً على التصنيف الذي يأخذ به بعض الفلاسفة المعاصرین للتمييز بين نوعين من المعرفة: بالإضافة إلى أن الكلام علم متعلق بالحقائق (Knowing that) كذلك، هو قدرة فنية تتعلق بمهارة خاصة (Knowing How)؛ وتأسیساً عليه للكلام حیثیتان: حیثية معرفية، وحیثية فنية.

إن الكلام أداة للدفاع عن الفكر الديني، لكنها أداة نابعة من مقوله المعرفة نفسها؛ فالذى يجب أن يوضع إزاء الهوية الدفاعية للكلام هي هوية التوليد المعرفي وليس الهوية المعرفية (وهذا ما سيُبيَّن في الفصول اللاحقة)؛ ولهذا السبب أورد البعض مثل ابن أبي جمهور الإحسائي تعبير الصناعة بقيد العلمية أي (الصناعة العلمية).

٢- الكلام متعلق بالفكر الديني:

يعتبر علم الكلام حسب التصور الدفاعي أداة في خدمة الفكر الديني، ويحدد تعلقه بالفكر الديني بناؤه المنطقي ونطاق مسائله؛ بحيث أن كل ما يرتبط بالفكر الديني يصبح متعلقاً بعلم الكلام، لكن ثمة إبهام في هذا التعبير يعود إلى السؤال التالي: ما هو المقصود بالفكر الديني؟ وهذا السؤال يمكن أن يتفرع عنه السؤالان التاليان: أولاً: هل المقصود الأفكار الدينية المشتركة بين الأديان أم تعاليم دين معين؟.

(١) راجع: المغني، حميد. قاموس البحرين، ص ٤٦ . ٤٧.

يُعدُّ التصور الأكثر رواجاً عن علم الكلام هو الذي يرتكز إلى هويته الآلية والداعية، والذي تعرض كثيراً إلى التغيير والتعديل وإعادة البناء. وفي هذا الصدد يشكل البحث المقارن للتعريفات ذات المنظور الآلي والتي تأسست على تصور كهذا عاماً هاماً في تجليه واستكشاف الأضلاع المعرفية لهذا العلم. وبعرف الفارابي. الذي يعد من أوائل من طرحا التصور الدفاعي. علم الكلام بما يلي: «الكلام صناعة يقتدر بها الإنسان على نصرة الأفعال والأراء التي صرَّ بها واضح الملة، وتزييف كل ما خالفه من الأقاويل».

رغم أن تعريف الفارابي يتحلى بالدقة من جوانب عدة لكنه لا يخلو من نقاص أيضاً مما حدا بالمتآخرين إلى إعادة صياغته وتحليله، وأصبح رأي الفارابي فيما بعد معتمراً عند علماء كثیر مثل الشيخ الصدوقي، والشيخ المفيد، والقاضي الإيجي (حسب أحد التفاسير لكتابه)، وابن أبي جمهور الإحسائي، وابن خلدون، واللاهيجي (حسب تعريفه في شوارق الإلهام)، والأشتiani، ومرتضى المطهرى، وأغلب المعاصرین الذين ساهموا في إعادة صياغة تعريفه. وسنقوم في هذا الفصل في معرض تحليل التعريفات المذكورة. دونما تكرار. بمناقشة تعريف الفارابي والإصلاحات وإعادة الصياغة التي تمت على يد المتآخرين.

من خلال التفحص والتدقيق في التعريفات المتعددة التي تنتمي إلى التصور الدفاعي لعلم الكلام يمكن استعراض خصائصها الرئيسية التي تساهم في ترسيم الأضلاع المعرفية لهذا العلم:

(١) الأستاذ المطهري، مجموعة مؤلفاته، الجزء ٢، ص ٥٨ و ٦٢.

(٢) نفسه، ج ١٤، ص ٤٥٣.

(٣) ولفسون، فلسفة علم الكلام، (ترجمة أحمد آرام، طهران، ١٣٦٨) ش ١.

(٤) سبعاني، جعفر، مدخل مسائل جديد در علم کلام، قم، ١٣٧٥ ش، ص ٥.

ثانياً: هل المقصود الأفكار الدينية الأصلية أم تلك المتدوالة في عُرف المتدینين؟ وفي هذه الحالة ما هو ملأك الفكر الديني وغير الديني، والفكر الديني الأصلي وغير الأصلي؟.

يمكن استخلاص رؤية الفارابي حول هذا الموضوع من خلال تعبيره: «التي صرَّ بها واضع الملة»؛ أولاً: أن متعلق علم الكلام فكر ديني خاص، ثانياً: أن متعلق علم الكلام هي الآراء الدينية الصريحة في لغة الشارع المقدس؛ وليس الآراء المتدوالة في عُرف المتدینين، وقد سار العلماء المسلمين بعدَ الفارابي على هذا النهج، فأخذوا بعين الاعتبار إسلامية علم الكلام حين عرَّفوه، وتعريف الأستاذ المطهري خير دليل على ذلك: «يكفي أن نقول في تعريف علم الكلام الإسلامي: العلم الذي يبحث في أصول الدين الإسلامي»^(١) وقد أشار إلى تقييد المعرف والمعرف بقيد الإسلامي في بعض آثاره إذ يقول: «علم الكلام علم إسلامي مائة في المائة لأنَّه يبحث في أصول العقائد الإسلامية ويدافع عنها»^(٢) واعتبر البعض مثل ولفسون أنَّ الكلام علم بالمعنى العام استناداً إلى أنَّ «الكلام ترجمة عربية للكلمة اليونانية (Theology)» وبناءً عليه فهو «علم بالاعتقادات الدينية»^(٣).

وذهب بعض المعاصرين إلى أنَّ «علم الكلام، منذ اليوم الأول، كان يقوم بمهمة الدفاع عن العقائد التأسيسية، وهو لا يختص بال المسلمين وحدهم، بل إنَّ المسيحيين عندهم كذلك علم كلام يدافعون عن عقائدهم وكتبهم والذي يطلقون عليه بالفارسية الإلهيات، وبالعربية علم اللاهوت، وفي الإنجليزية (Theology)»^(٤).

إنَّ مسألة أنَّ أهل الأديان أَسَّوا علمًا للدفاع عن الاعتقادات الدينية لا تعني بالضرورة أنَّ نطلق على هذه العلوم اسم «الكلام» دونأخذ أصل الاعتقادات الدينية بعين الاعتبار، ورغم أنَّ المناقشة والبحث في التسمية والاصطلاح أمرٌ ليس ذا أهمية من باب أنه لا مشاحة في الاصطلاح. لكن إذا كان هذا الكلام يفضي إلى تصور اشتراك هوية الكلام المعرفية مع الإلهيات المسيحية والأنظمة الاعتقادية الأخرى فهذا خطأ.

إنَّ إسلامية علم الكلام تعني أنَّ موضوعه يبحث في العقائد الإسلامية والسائل المتعلقة بها. سواء كانت هذه المسائل مشتركة مع الأديان الأخرى أم لا، وباعتقادنا أن الالتفات إلى هذه المسألة يساهم بشكل جدي في إرساء منهجية لنقد الفكر الإسلامي الكلامي المعاصر، كما يؤدي إلى الوقاية من الخلط بين الكلام الإسلامي والإلهيات المسيحية؛ فالتماييز بين الكلام والإلهيات المسيحية له أهمية قصوى في تحليل الكلام الجديد. وعليه أطلقنا. من باب التأكيد. على العلم الذي يبحث في العقائد الإسلامية «الكلام»؛ والعلم الذي يبحث في الاعتقادات المسيحية «الإلهيات» كما نصرُّ على أن ترجمة كلمة "Theology" و "Moderntheology" بـ«الكلام» و «الكلام الجديد» ليست صحيحة، وسيتم توضيح سبب تسمية الكلام عند المسلمين والإلهيات عند المسيحيين في الفصل الحادي عشر.

قام بعض العلماء بعد الفارابي من أمثال التفتازاني وابن خلدون بتقديم الأفكار الدينية على شكل كلام فئوي (مثل الكلام الأشعري). وعلى سبيل المثال أعاد ابن خلدون توليد تعريف الفارابي الجامع «الأفعال والأراء التي صرَّ بها واضع الملة» بالشكل التالي «اعتقادات مذهب السلف وأهل السنة»^(١) ويعود هذا التعريف إلى خلفياته التاريخية.

قام العلماء المسلمين بنقد ومناقشة آراء مختلف الفرق الإسلامية؛ من خلال عملية نشر وتوسيع رقعة الثقافة والحضارة الإسلامية، وكانت كلَّ فرقية تعتقد أنها على «مذهب السلف وأهل السنة»؛ ولا بد من إبطال آراء أهل البدع الضالين عن عقائد أهل السنة (فرق الخصوم).

يورد القاضي عضد الدين الإيجي في هذا المضمار كلاماً أدقَّ: «المراد بالدينية، المنسوبة إلى دين محمد ﷺ، فإنَّ الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام»^(٢). فمن وجهة نظره المقصود من تعريف العقائد الدينية في تعريف الكلام هو دين نبي الإسلام ﷺ؛ وهذا لا يستوجب أن نخرج مذاهب الفرق الأخرى داخل دائرة الفكر الإسلامي. مثل المعتزلة. من تعريف علم الكلام، بالرغم من اعتقادنا بخطأ اعتقاداتهم.

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٥٨.

(٢) الإيجي، عضد الدين، المواقف، ص ٧.

إن الاختلاف بين تعبير الإيجي والتفتازاني يكمن في أن إيراد الكلام المعتزلي مثلاً عند الإيجي إطلاق حقيقي؛ بينما كان عند التفتازاني على سبيل التوسيع والمجاز. وتتضح دقة تعبير الإيجي في تمييز مقامي التعريف والتحقق؛ فالصدق والكمال والنقاء هي صفات الكلام في مقام التعريف، أما الكلام في مقام التتحقق فمن الممكن أن يتضمن الخطأ والصواب والنقصان والمسائل غير الكلامية. الأمر الذي يعتبر من مقتضيات التطور التدريجي لأي علم، والذي لا يتنافي مع إطلاق صفة علم الكلام عليه إطلاقاً حقيقياً.

٣- دائرة اهتمام الكلام كل الأفكار النظرية وتعاليم الدين العملية:

هل يتعلق علم الكلام بكل التعاليم الدينية أم بقسم خاص من منظومته الفكرية؟. يعتقد بعض المتكلمين، لغاية تفكير علم الكلام عن علمي الأخلاق والفقه. أن متعلق علم الكلام ليس كل التعاليم الدينية، بل تتسع دائرته لتشمل التعاليم النظرية فقط، وحسب تعبير الإيجي «نفس الاعتقاد دون العمل».

ولهذه الرؤية أنصار وأتباع عند المتأخرین، يقول أحد المشغلين المعاصرین بالدراسات الدينية: «لم يكن علم الكلام بشكله المتبادل بين المسلمين يتناول كل المقولات والقضايا الموجودة في النصوص الدينية المقدسة، بل كان يستبعد من دائرة بحثه المقولات المتعلقة بالقيم والأخلاق».

تعود جذور هذا الاعتقاد إلى حصر الاهتمام بمقطع تاريخي معين من تاريخ الأفكار الكلامية، أو إلى الاكتفاء بمطالعة نصوص خاصة من المصادر الكلامية في الثقافة الإسلامية، فكما يصرّ الفارابي فإن متعلق علم الكلام ليس فقط الآراء والاعتقادات الدينية النظرية، بل إن الأفعال الدينية، والوصايا والقيم الدينية، تقع أيضاً في إطار علم الكلام، وهو مكلف بالدفاع عن جميع الاعتقادات الدينية سواء الوصفية منها أم القيمية.

كانت بعض التعاليم الدينية، في مقطع تاريخي معين، هي المسألة الرئيسية لعلم الكلام طبقاً للظروف التاريخية والشبهات التي طرحت: وبؤكد الفارابي على اشتغال الكلام على كلتا الطائفتين من المقولات الدينية والتي يطلق عليها. حسب تعبيره. الآراء والأفعال الدينية. وهو يقول في مقام دفع شبهة الخلط بين علمي الكلام والفقه:

«صناعة الكلام غير علم الفقه؛ لأن الفقيه يشتغل بآراء وأفعال بينها واضح الشريعة صراحة، وهو يؤسس لهذه المسائل القطعية باعتبارها مبادئ حتى يستتبطن منها بقية الأحكام الالزامية، بينما يدافع المتكلم عن العقائد التي يستعملها الفقيه كمبادئ دون أن يستتبطن منها أشياء أخرى؛ وتأسساً عليه إذا تمكن شخص من هاتين الصناعتين فهو يصبح فقيهاً متكلماً؛ أي أنه متكلم؛ لأنه قادر على الدفاع عن الشريعة، وفقيه؛ لأنه قادر على استنباط الفروع من الأصول»^(١).

بناء على ذلك؛ فإن تفكير الكلام عن الفقه يعود إلى طريقة تناول العالم للشريعة وأهدافه منها، لا أن يفهم ذلك بمعنى حصر مجال الدراسات الكلامية في المقولات المتعلقة بالواقع، فالحقيقة أن التعريف الغائي للكلام واعتباره علمًا دفاعياً يقتضي أن نعتبر تعاليم الشريعة. سواء الاعتقادات المتعلقة بالوجود، أو المثل المتعلقة بالقيم والوصايا الفقهية. جميعاً داخل إطار علم الكلام. كذلك يُظهر التطور التاريخي لعلم الكلام؛ والتنبه إلى جميع مراحل تطور الأفكار الكلامية عند الفرق المختلفة، أن اعتبار مسألة دينية ما مسألةً كلامية لم يكن مشروطاً باعتبار هذه المسألة متعلقة بالواقع، بل نجد أن المسائل القيمية، والينبغيات قد طرحت أيضاً على شكل مسائل كلامية؛ ومسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كلام الشيعة والمعتزلة مثالٌ على هذا الإدعاء، وبالطبع فإن طريقة تناول المتكلم مثل هذه المسائل تختلف اختلافاً أساسياً عن طريقة تناول الفقهاء لها؛ فعملُ الفقيه يقوم على أن الشارع قد قال في هذا المقام (كذا)، أما عملُ المتكلم فيقوم على بيان لماذا قال الشارع في هذا المقام (كذا) بنحو معقول. وسوف نبحث بالتفصيل في الفصل السابع في التمييز بين الكلام وعلمي الأخلاق والفقه.

٤- يُعرَّف علم الكلام بالهدف:

إن تعريف الفارابي لعلم الكلام تعريفٌ غائيٌ أساساً، بناءً على التصور الداعي للكلام واعتباره وسيلة، وتُتضح ماهية هذا العلم عن طريق بيان غايته وهدفه وقد اهتم العلماء الذين اعتمدوا هذا التصور في مقام تعريف علم الكلام ببيان ما هو متوقع ومطلوبٌ من المتكلم.

(١) الفارابي، إحصاء العلوم، ص ١١٤.

(١) سروش، عبد الكريم، قبض ويسقط تئوريك شريعت ص ٦٥ - ٦٦.
 (٢) ملاصدري شيرازي، الأسفار الأربع، ج ١ ص ٣٠ هوامش العلامة الطباطبائي.

(١) انظر: فرامرز قراملکی أحد «موضوع العلم كل ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية» مقالات ودراسات دفتر (٥٣ - ٥٤)، ١٣٧٢، ش، ص ١٢٥ - ١٥٨.

(٢) العلامة الحلي، الجوهر النضيد في شرح منطق التجريد، (قم بيدار، ١٣٦٣ ش) ص ٢١٢، وص ٢١٣.

(١) انظر: فرامرز قراملکی أحد «موضوع العلم كل ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية» مقالات ودراسات دفتر (٥٣ - ٥٤)، ١٣٧٢، ش، ص ١٢٥ - ١٥٨.

(٢) العلامة الحلي، الجوهر النضيد في شرح منطق التجريد، (قم بيدار، ١٣٦٣ ش) ص ٢١٢، وص ٢١٣.

وتوجد طريقتان متداولتان لتعريف علم ما في الغالب عند العلماء المسلمين: التعريف الموضوعي للعلم، والتعريف الغائي؛ وذلك لأن ما يوجد مسائل علم ما إما موضوعه وإنما غايته. ويطرح التعريف الغائي للعلم عادةً عندما يتذرع تعريفه عن طريق الموضوع نسباً ما، وقد قيل إن هاتين الطريقتين لتعريف العلم متعلقتان بنوعي العلوم، علوم الآلة وعلوم المقاصد. واعتبر البعض أن سبب تقديم تعريف غائي لعلم الكلام هو فقدانه للموضوع:

«هذا علم بلا موضوع، ولا يمكن ذكر موضوع معين وأن علماء الكلام قد بحثوا في عوارضه الذاتية المباشرة، بل إن علم الكلام عند المتكلم يعتمد في تطوره وتنوعه على أنواع المعارف في مذهب معين وعلى الشبهات التي تثار حوله وذلك من باب أن شخص المتكلم ملتزم بالدفاع عن مذهب معين من المذاهب. وقد كان المتكلمون يقومون بوظيفتين في الماضي: الأولى تبين واثباتات المعارف الداخلية للمذهب والثانية الدفاع عن هذا المذهب في مقابل الشبهات، وهما الوظيفتان الأساسيةتان للمتكلمين،»
 ويمكن اعتبار قسم آخر من العلوم من تلك التي تفتقر إلى الموضوع، وأحد هذه علم الكلام هذا. وإذا ما عرفنا علم الكلام بالشكل التالي: «علم الكلام هو العلم الذي يهدف إلى الدفاع عن حمى الشريعة» فهو تعريف مقبول بالكامل، وهذا الهدف قادر على توحيد مسائل هذا العلم^(١).

وتتجدر الإشارة هنا إلى الملاحظات الانتقادية التالية:

أولاً: هذا القول. لا يمكن الإشارة إلى موضوع والقول بأن علم الكلام يبحث في عوارضه الذاتية المباشرة». يستند إلى الافتراض بأن التفسير الوحيد الممكن لموضوع العلم هو ما جاء في التعريف المتداول لموضوع العلم يعني «ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية»؛ في حال أن هذا واحد من تفسيرات موضوع العلم، وكما يصرح العلامة الطباطبائي (ره) في حواشيه على الأسفار، فإن هذا التصور لموضوع العلم خاص فقط بالعلوم البرهانية^(٢). ويمكن تقديم تفسير آخر لموضوع العلم بحيث يكون شاملًا لجميع العلوم سواء العلوم الآلية أو العلوم المقاصدية، والعلوم المنتجة أو المستهلكة.

إذا قيل في تعريف موضوع العلم إنه الأمر الذي تتحدث عنه مسائل العلم^(١)، ففي هذه الحالة لا يصبح علم الكلام علمًا بلا موضوع. فالشيء (الأمر) الذي يتحدث عنه العلم إما واحد أو متعدد. وعلى أساس قواعد منطق العلوم إذا كان موضوع العلم أموراً متعددة فيجب أن تكون بينها علاقة حتى تحفظ وحدة مسائل العلم.

يورد العلامة الطوسي (٦٩٨ - ٦٧٢) علم الكلام كمثال في معرض بيان هذه الملاحظة، إذ أن لعلم الكلام موضوعات متعددة وبينها علاقات وأوجه اشتراك معاً، ويفسر شارحه العلامة الحلي (٦٤٨ - ٧٢٨) وجه اشتراك وعلاقة موضوعات علم الكلام عن طريق انتسابها إلى مبدء واحد (يعني واجب الوجود) وليس عن طريق وحدة الغاية^(٢). ثانياً: القول بأن «علم الكلام علم بلا موضوع، لا ينسجم مع تاريخ الأفكار الكلامية، وذلك لأن غالبية المتكلمين اعتبروا أن لعلمهم موضوعاً وفصلوا الحديث في باب موضوع علمهم، وسنقوم في الفصل السادس بدراسة آراء المتكلمين بخصوص موضوع علم الكلام.

ثالثاً: إن علة قيام البعض بتقديم تعريف غائي لعلم الكلام هو اعتقادهم أنه غير منتج للمعرفة، فمن وجده نظر علماء المنطق العلم الذي يبحث في تحصيل المعرفة يتم تعريفه حسب الموضوع، وأما العلم ذو الهوية الآلية والدافعية فيعرف حسب الهدف ووظائفه في الوصول إلى الهدف.

لكن على أي حال فمن وجهة نظر الذين يقولون بهاتين الرؤيتين: الكلام علم لا يخلو من موضوع (من خلال القراءة الخاصة التي قدمناها عن الموضوع).

٥ - لـلـكلـام هـدـفٌ متـعـدـدـ الـأـبعـادـ:

اختلفت آراء العلماء في بيان هدف علم الكلام ووظائف المتكلمين؛ ففي أقوال أشخاص كالشيخ الصدوق، والشيخ المفيد انصب الاهتمام على رد المعارضين ودحض الباطل فقط، ويشير الفارابي إلى وظيفتين: نصرة آراء وأفعال المتصحّح الديني، وتزييف الآراء المعارضة. ويؤكد ابن أبي جمهور الإحساني على وظيفة أخرى: تصحيح العقائد

(١) انظر: فرامرز قراملکی أحد «موضوع العلم كل ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية» مقالات ودراسات دفتر (٥٣ - ٥٤)، ١٣٧٢، ش، ص ١٢٥ - ١٥٨.

(٢) العلامة الحلي، الجوهر النضيد في شرح منطق التجريد، (قم بيدار، ١٣٦٣ ش) ص ٢١٢، وص ٢١٣.

ومخاطبيه، والوصول إلى هذا الهدف مرهون بتوضيح التعاليم الدينية؛ ففي التعاليم الدينية مفاهيم متعددة مثل: الإيمان، والتوحيد، والتبوة، والإمامية، والعدل. والتي تحتاج إلى توضيح وتعريف. وتقديم هذا التصور الواضح والممتاز للمفاهيم الدينية واحب يقع على عاتق علم الكلام.

جـ. تقديم نظام منسجم من الاعتقادات الدينية. إن أهم وظائف علم الكلام أن يقدم الأفكار الدينية على شكل نظام معرفي؛ والمراد بالنظام المعرفي هو مجموعة الاعتقادات التي تم التأسيس لها بصورة منطقية، ولا يجب أن يدرس المتكلم الاعتقادات الدينية بصورة متفرقة، بل يجب عليه بداية أن يميز أصول العقائد الدينية عن فروعها، وعندما يضع الأصول في تسلسلها المنطقي.

وكل مقوله تكون مسبوقة منطقياً بمقوله أخرى تكون مترتبة عليها في النظام المعرفي. وعلى المتكلم أن يضع مسلمات الأفكار الدينية ومبادئها التصورية أساساً للنظام المعرفي الكلامي. على سبيل المثال، عندما يحتاج المتكلم بالقرآن لتبيين اعتقاد خاص، عليه، أولاً، أن يحقق جميع المقولات التي تستند إليها حجية الكتاب المقدس منطقياً، كأن تكون مسبوقة أو منوطة بها. تعتبر رسالة «قواعد العقائد» للمحقق الطوسي (ره) أنموذجاً لتقديم نظام معرفي في الفكر الديني وبشكل منظم ومنسق.

يمكن أيضًا إيضاح الوظائف الثلاثة السابقة بشكل ممتناز في المثال التالي: كانت مسألة حدوث وقدم القرآن واحدة من المسائل الرئيسية لعلم الكلام في القرون الأولى للفكر الإسلامي، وكان على المتكلم قبل النفي والإثبات أن يوضح ما يلى:

١. أيهما يعتبر جزءاً من الاعتقادات الدينية، الإيمان بحدوث القرآن أم بقدمه؟
 ٢. ما هو المراد من حدوث القرآن وقدمه؟ وما هو المعنى الدقيق للمقولات التي تشمل على هذه المفاهيم؟
 ٣. ما هي منزلة حدوث أو قدم القرآن في الفكر الديني؟ وهل هي من الأصول الأولية للنظام الاعتقادي؟ هل تقع ضمن المسائل الرئيسية (لا الجذرية ولا الفرعية)؟
هل هي قضية ثانوية وفرعية؟.

الدينية، وبهذا الشكل ترثى التصور الدفاعي والآلي للكلام ثلاث وظائف رئيسية
وتشتمل كل منها على، وظائف فرعية متعددة:

١. تصحيح العقائد الدينية.
 ٢. إثبات التعاليم الدينية.
 ٣. دفع الآراء المعاصرة.

أولاً: تصبح العقائد الدينية:

اتضح في أن تعين حدود ومعالم الاعتقادات الدينية ومجال الاعتقادات الإيمانية وكذلك تميز الأفكار الدينية عن الأفكار الالتفاقية والانحرافية وغير الدينية هي مسألة محتاجة إلى التمييص والتحقيق. ولا يوجد علم يهتم بالتحقيق والبحث بهذا الخصوص سوى علم الكلام، ورأى ابن أبي جمهور الإحسائي في هذا الخصوص هو الذي حظي بقول أغلب العلماء وقد رجح أشخاص من أمثال الأستاذ المطهري رأيه في تعريف علم الكلام^(١):

يشتمل «تصحیح العقائد الدينیة» على ثلاث وظائف على الأقل:

- أ. بيان ما هو من أصول الدين، وجاء هذا التعبير في أقوال الأستاذ المطهري. إن تعين حدود ومعالم الفكر الديني، وتمايز الفكر الديني الحالى عما اتى به عند المتشرعين صيغة دينية، واعتبار جزءٍ من الأفكار الدينية أمرٌ بالغ الأهمية. يقع الفكر الدينى في حياته الاجتماعية.التاريخية دائمًا في معرض التحريرات والفهم الخاطئ، ولا بد للمتكلم من تعين حدود وثغور الفكر الدينى في مقام مكافحة هذه الانحرافات والبدع والتحريضات، وهذا الأمر دائم ومستمر، فكما أن الفقيه دائم الحضور في مقام تعين الوظائف والتکاليف الشرعية من منابعها، فالمتكلم، أيضًا، يكون دائمًا في مقام تبيين الاعتقادات الدينية من منابعها. واحياء الفكر الدينى وما يعرف عند المعاصرین بـإعادة بناء الفكر الدينى هو جزءٌ من هذه الوظيفة.

(١) توجد لبعض المعاصرین ملاحظة انتقادية بهذا الخصوص سيتم بحثها فيما بعد.

أتبع أهل السنة والمحثون والشيعة كذلك إلى أئمة أهل البيت لحل المسألة (صどق)، كتاب التوحيد، باب القرآن، حديث ٥٠٢).

إن الرسائل القصيرة التي انتظمت فيها العقائد الإسلامية قد نظمت جمِيعاً على يد المحدثين، وبين أيدينا رسالة أحمد بن حنبل (متوفي ٢٤١) في تنظيم عقائد أهل السنة، وقد اعتمد هو أيضاً في بيان الأصول الكلية على الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ وليس على أقوال المتكلمين. وفي الرسالة «الطحاوية» التي ألفها الشيخ أبو جعفر الطحاوي (متوفي ٣٢١) تم تنظيم العقائد عن طريق الأحاديث، وهذه الرسالة تدرس اليوم في مدارس السلفيين أيضاً، وقد أورد ذلك الشيخ الأشعري (٢٦٠ - ٣٢٤) الذي نظم عقائد أهل السنة في رسالة «إبانة»، وكرَّر نفس الشيء؛ وبناءً على ذلك، يتبيَّن لنا أن أهل الكتاب لم يستمدوا عقائدهم من المتكلمين ليكون ترسير حدود هذه العقائد بأيديهم. واستمد الشيعة عقائدهم من خطب أمير المؤمنين، روايات أهل البيت. وتوحيد الصدق شاهد واضح على هذا الأمر أيضاً، حتى أن الإمام الرضا عليه السلام كتب رسالة منفصلة في العقائد الإسلامية إلى المؤمن باسم رسالة الإسلام المحضة (صدوقي)، عيون أخبار الرضا، ج ١٢١ - ١٢٢)، وكذلك عرض السيد عبد العظيم عقائده على الإمام الهادي (صدوقي، التوحيد، باب التوحيد والتشبُّه، ص ٨١) ونظم الشيخ صدوقي من بعده عقائد الشيعة في رسالتين من خلال رؤية جديدة: ١. رسالة الموجز، والتي طبعت في نهاية كتاب المقنع والهداية (بيروت، مجلس ٩٣، ص ٥٩). ٢. رسالة بعنوان عقائد الإمامية (متن تصحيح الشيخ المفید) وكلنا نعلم أن الشيخ الصدق كان مُحدَّثاً وليس متكلماً.

بناءً على ذلك، فإن تحديد العقائد اتضح عن طريق علماء الإسلام وبالذات المحدثين، وتم ذلك عن طريق العودة إلى الكتاب والسنة، ولم تكتف كتب المتكلمين مقاييساً لتنظيم العقائد أبداً، ووظيفة المتكلمين هي تلك الوظيفة الثانية، أي أن يدافعوا عن العقائد المسلمة للإسلام بمنطق العصر لا أن يقوموا أنفسهم بترسيم حدود العقائد الإسلامية^(١).

ولهذا السبب ترى المجموعة الثانية أن وظيفة علم الكلام هي الدفاع عن الدين

(١) سبطاني جعفر. «معرفتهما وبنى وأصول فلسفتي وركشاكس معرفت شناس روز» جاب أول ١٣٧١ جاب دوم در: مجتهد شبستري محمد. هرمنوتيك... ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

خاصة؛ كالعبور من الإيمان البسيط إلى العقيدة ومواجهة الأديان والفلسفات الأجنبية. ويرى البعض الآخر أن ترسير حدود الفكر الديني يعود أساساً إلى صدر الإسلام، والذي اكتسب شكله النهائي عن طريق المحدثين، ولذلك لا يمكن اعتباره من وظائف علم الكلام.

وسنقوم بالتحكيم من خلال عرض عبارات كل من المجموعتين:

تقول المجموعة الأولى : «كان لعلم الكلام بين المسلمين ثلاث وظائف رئيسة وكانت إحدى وظائفه هي تبيان الأصول العقائدية والإيمانية للإسلام، وأن يحدد ما هي هذه الأصول، ظهرت الحاجة إلى مثل هذا القول عندما وجه المسلمون بالأديان والفلسفات الأجنبية، في مثل هذه المواجهات تبرز الحاجة دائماً إلى تحديد ما، ويُجبر أتباع دين ما إلى تحديد أصولهم الاعتقادية بشكل دقيق، هذا التحديد له بعد داخلي وجده خارجي؛ يبين البعد الداخلي لأصحاب الإيمان ماهية اعتقاداتهم، بينما يظهر الوجه الخارجي ما هي الفروقات بين هذه الآراء وآراء أتباع الأديان الأخرى ، وما هي الاعتقادات التي لا يمكن لها لقاء قبولها.

يجب القيام بمثل هذا التحديد المزدوج في مقام المواجهة؛ في هذا التحديد يقال مرة ماذا يوجد في هذا الدين المعين؟ ويقال مرة أخرى، ما الذي لا يوجد في هذا الدين المعين؟ ففي هذا العمل هنالك نفي وهنالك إثبات أيضاً، وتظهر الحاجة مثل هذا التحديد عادة عندما تُوجَّبُ الضرورات أن يتحول الإيمان البسيط إلى عقيدة وهي المرحلة التي يصبرها أتباع الأديان دائماً^(١).

تقول المجموعة الثانية: «لقد حُددت العقائد الإسلامية منذ اليوم الأول عن طريق الرسول ﷺ ومن بعده من خلال خطب أمير المؤمنين والأئمة اللاحقين، يعني العقائد التي يُعدُّ الاعتقاد بها ضروريًا؛ والإسلام والإيمان يتحققان في ظلها. ينقل البخاري في صحيحه عن الرسول ﷺ قوله أن للإسلام خمسة أركان، ويدرك منها الشهادتين، ويدرك كذلك قسماً من الفروع المهمة أيضًا (البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان، ص ١٤) وقد شُرِّحت هذه الأركان في خطب أمير المؤمنين أيضًا أكثر من ذلك، وحدَّدت معالم العقائد الإسلامية جيداً، وحتى حين ظهرت مسألة خلق القرآن في عصر المؤمن عاد

(١) مجتهد شبستري، محمد «نقد الفكر التقليدي في الإسلام المعاصر» ط ١١٣٧١ ش. الطبعة الثانية في: نفسه: الهرمونيقيا، الكتاب والسنة، طرح جديد، طهران ١٣٧٥ ش، ص ١٦٩ - ١٦٨.

فقط: «أسس علم الكلام منذ يومه الأول للدفاع عن العقائد»^(١) وهذا يوافق التعريف التي قدمها الشيخ الصدوق والشيخ المفيد لعلم الكلام.

و سنكتفي في مقام التحريم بين التصورين المختلفين لوظيفة المتكلم بخصوص تصحيح العقائد، وتوضيح المفاهيم الدينية، وتحديد الفكر الديني بذكر الملاحظات التالية:

الملاحظة الأولى: إن سرتأكيد أشخاص كابن أبي جمهور والأستاذ الشهيد المطهرى على أن تصحيح العقائد الدينية وبيان «ما الذي هو من أصول الدين؟» هي من وظائف علم الكلام، يمكن في الحقيقة التاريخية التي تقول أن الفهم الصحيح للفكر الديني، والاحترام من الالتفاظ الناشئ عن التفسيرات غير المنضبطة للعقائد الدينية، هي حاجة دائمة، والتي لا مفر لذهن ولغة المخاطبين منها، ويقوم المتكلمون برفع هذا الاحتياج على أساس القرآن والسنة، وبالنظر إلى الاختلافات العميقية في فهم الفكر الديني في العصر الحالي يصبح القيام بهذا الواجب ذا أهمية قصوى .

نحن اليوم في مواجهة ادعاءات متعددة حول إعادة بناء وإحياء الدين، وتعود مسؤولية تبيان جدية أو عدم جدية هذه الإدعاءات إلى وظيفة علم الكلام هذه، فلربما يسمى شخص إعادة بناء خاصة للدين باسم إحياء الفكر الديني بينما يرى متكلم آخر في إعادة البناء ذاتها إماتة للدين^(٢) .

الملاحظة الثانية: إن سنة تأليف الرسائل المنفردة في بيان أصول العقائد بهدف ترسيم الحدود. وليس إثبات أو دفع الشبهات. هي واقعية تاريخية لا تقبل الإنكار، و«واجب الاعتقاد على جميع العباد» للعلامة الحلي^(٣) (٦٤٨) ، و«واجب الاعتقاد الكبير لفخر المحققين ابن العلامة الحلي (متوفي ٧٧١)^(٤) ، و«واجب الاعتقاد للملا أحمد الأردبيلي، و«عقائد الإمامية» للمرحوم المظفر، و.....، الكثير من الأمثلة من الآثار الكلامية إنما هي في تعين ما هو من أصول الدين والذي يختص بوظيفة تصحيح العقائد الدينية.

(١) سجاني جعفر «مدخل مسائل جديد در علم کلام» قم ١٣٧٥ ش، ص ٥.

(٢) جوادي آمني، شریعت درآئیة معرفت، مرکز نشر فرهنگی رجاء ١٣٧٢ ش، ص ٤٩٧ - ٤٠٠.

(٣) السيوري، مقداد بن عبد الله. الاعتقاد في شرح واجب الاعتقاد، تحقيق صفاء الدين البصري، آستان قدس رضوي، ١٤١٢ هـ.

(٤) الطهراني، آغاذرک، الذريعة إلى تصنیف الشیعہ، دار الأضواء بيروت، أبي تا، ج ٢٥، ص ٤.

الملاحظة الثالثة: تعود جذور الاختلاف المذكور إلى نوع من توهם الانفصال الناشئ عن خطأ «ليس إلا هذا» فلا يوجد تعارض بين القول بأن المتكلمين قد وجدوا أنفسهم مضطرين للقيام بترسيم حدود العقائد الدينية خاصة في مواجهة بقية الأديان والفرق والفلسفات، والقول بأن تحديد الاعتقادات الدينية من المسائل المهمة التي طرحت في صدر الإسلام على يد الرسول ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام واهتمام المحدثين بها. فتحديد الاعتقادات الدينية قضية مستمرة وضرورية؛ لأنه في كل عصر تظهر انطباعات متفاوتة واعتقادات متباعدة، وتحديد دينيتها أو عدم دينيتها من المسائل المهمة لعلم الكلام، فالمتكلمون لا يقومون بهذا التحديد على نحو تأسيسي بل يقومون بهذا الواجب المهم بنحو تفسيري وكشفي، وتفسيرهم هذا يستند إلى القرآن والسنة بناءً على ذلك يبدو أنه لا دليل على حصر تحديد الفكر الديني في الوضعية التي أشارت إليها المجموعة الأولى، ولا دليل أيضاً على حصره في المقطع التاريخي والذي تعتقد المجموعة الثانية بأنه مقنعٌ ومبرهن؛ فالمتكلم من حيث أنه يحدد كون الاعتقاد الفلاني من التعاليم الدينية أم لا، يشبهه الفقيه في تحديد كونه الأمر أو النهي الفلاني من الأوامر والنواهي الشرعية أم لا، وكما أنه لا شك في استمرارية الحاجة إلى اجتهاد الفقيه، فإن استمرار الحاجة إلى اجتهاد وتفقه المتكلم ليس محلَّ للشك أيضاً.

ثانياً: إثبات الاعتقادات الدينية:

الوظيفة الرئيسية الثانية للمتكلمين هي إثبات التعاليم الدينية، وملائكة كيفية إثبات هذه الاعتقادات هو ذهن ولغة مخاطبِي الوحي؛ لأن المراد من إثبات التعاليم الدينية هو إظهار عقلانيتها بشكل يجعلها محط تسليم وتصديق المخاطبين؛ وبناء عليه، يتخذ إثبات التعاليم الدينية أساليبًا مختلفة حسب مراتب ذهن ولغة المخاطبين.

ولا يختلف المتكلمون الذين يمتلكون تصوراً دفاعياً لعلم الكلام بخصوص أصل هذه الوظيفة، لكنهم يختلفون في تبيين طريقة المتكلم في إيفاء هذا الدور، والذي سنتناوله في البحث^(٥).

ثالثاً: دفع الآراء المعارضة:

الدور الثالث للمتكلم هو دحض الرؤى المخالفة لل تعاليم الدينية؛ ولذلك صور

مختلفة: أحياناً يرد المتكلم تعارض الرؤى المخالفة من خلال تبيين أن هذا التعارض ظاهري وليس واقعياً، وأحياناً يدفعها من خلال إبطالها وإظهار خللها المنطقي. والآراء المعارضة لها أقسام أيضاً: فـأحياناً تكون الآراء الإلحادية المعارضة لأصل الدين هي المطروحة، وأحياناً تطرح الآراء الدينية لسائر الشرائع المخالفة للآراء الدينية للمرء، وتطرح أحياناً أخرى آراء سائر الفرق الدينية على شكل شبهاً. يضيف البعض موارد فرعية إلى الفهرست الثلاثي المذكور قابلاً بدورها للتتحول إلى ثلاثة أدوار رئيسية على شكل وظائف أساسية؛ على سبيل المثال: ذكر البعض وظائف المتكلم في أربعة أقسام عن طريق تجزئة فهم وبيان معاني ومفاهيم الألفاظ التي استعملت في التعاليم الدينية والمذهبية حول وظيفة كشف وتقديم نظام اعتقادي للدين والمذهب^(١). في حال أنه بالإمكان اعتبار هاتين الوظيفتين من أقسام الوظيفة الأولى . كذلك طرح البعض «دحض الشكوك والشبهاً التي يتعرض لها المؤمنون أحياناً» و«الرد على احتجاجات المخالفين» على شكل وظيفتين رئيسيتين، وزادوا على ذلك الوظيفة الثالثة^(٢).

وزاد البعض وظائف أخرى علاوة على الوظائف الثلاثة (وفروعها)، وسنكتفي هنا بتقرير إجمالي حول مثاليين؛ أولاً: الهجوم على اعتقادات الطرف المقابل^(٣) . ثانياً: تفسير تطور المعرفة الدينية وعلم الدين بشكل إجمالي، والرؤية الثانية بحاجة إلى توضيح وتقويم:

قال بعض المعاصرين في تعريف علم الكلام: «الكلام علم عقلي للحفظ على شريعة من الشرائع، وتحديد مصداق الحق والباطل في ميدان المذاهب، وتبين المفاهيم الدقيقة لتلك الشريعة، وتوضيح تكامل المعرفة الدينية بالاستعانة بالتحليل اللغوي والأدلة المنطقية، والاعتماد على البديهيات، والمشهورات، وبيئات العقل»^(٤).

وكما هو واضح، ففي هذا التعريف الذي يستند إلى تصور دفاعي آلي قد تمت الإشارة إلى وظيفة أخرى غير الوظيفة الرئيسية الثالثة: (توضيح تكامل المعرفة

(١) نقد ونظر، عدد ٣، بهار (ربيع) ١٣٧٤ ش، ص ٤٣.

(٢) الشرفي عبد المجيد، الإسلام والحداثة، (الدار التونسية للنشر ١٩٩١ م) ص ٤١.

(٣) نقد ونظر، عدد ٢، بهار (ربيع) ١٣٧٤ ش، ص ٤٤.

(٤) سروش عبد الكريم، دروس مسائل جديد كلامي، علم ودين، دانشکده الهیات ومعارف اسلامی - ١٣٦٢ ش. جزء درسی، درس أول.

الدينية)، وقد قمت بطرح بعض الملاحظات الانتقادية حول هذا القول في موضع آخر^(١). وقيل كذلك «يكسب علم الكلام وظيفة جديدة، وتضاف وظيفة أخرى إلى الوظائف الثلاثة التي ذكرنا، يعني دفع الشبهات، وتبين المعارف، وإثبات المباني، وهي بعنوان «علم الدين»: (المعرفة الدينية) والمعرفة الدينية نظرية إلى الدين من خارج الدين؛ لذلك فالكلام الجديد يسمى أحياناً بـفلسفة الدين»^(٢). يبدو أن هذا القول، بتعبير منطقي، يستند إلى عدم التمايز بين مبادئ وسائل العلم؛ فعلى أساس ضوابط منطق العلوم لا يمكن معالجة مبادئ العلم بمنزلة مسائله؛ المعرفة الدينية (علم الدين) خارج الدين وتطور المعرفة الدينية في الواقع بحث من مبادئ علم الكلام أيضاً، وهي مرتبطة بمعرفة أعلى (أكمل) كفلسفة علم الكلام أو فلسفة علم الدين ويوجد اختلاف بينها وبين المباحث الكلامية التي تنطلق من داخل الدين، وتتخذ مواقف منحازة، وتميل إلى تبيين المعرفة الإيمانية، ولا ينسجم القول بأن تبيين تطور وتكامل المعرفة الدينية وعلم الدين من جملة وظائف علم الكلام مع التصور الداعي لعلم الكلام؛ لأنه يفترض بأنه حيادي وغير منحاز.

من الأهمية بمكان التنبه إلى هذه الملاحظة المنهجية بخصوص وظائف المتكلم الثلاثة وهي: أنه لا يمكن للمتكلم أن يتناول وظيفة دون الوظائف الأخرى في إطاره لأدواره الثلاث؛ وذلك لأن هذه الوظائف الثلاثة ذات تسلسل منطقي وعلاقة جدلية، فالعمل الذي ينجذب في المراحل اللاحقة قد يكون له تأثير على المراحل السابقة، فمثلاً إذا لم يستطع شخص الدفاع عن نسقه الفكري المكتسب في مواجهة الانتقادات المطروحة بالشكل المفترض واللائق يجب عليه أن يجدد النظر في نسقه الفكري.

عندما تطرح انتقادات جديدة من الممكن أن نكتشف أنه إذا ما قمنا بتغيير نسقنا الفكري بنحو ما، فسنتمكن من الإجابة عليها بشكل أفضل. هكذا يصبح هنالك تعلق متبادل، دائم بين الأعمال التي تنجذب في هذه المراحل الثلاثة، وقيل في توضيح هذا المعنى :

«من الأفضل أن نشبه عمل المتكلم بعمل المصانع بدل أن نشبهه بعمل البناء، على

(١) سروش، عبد الكريم، قبض وبسط، ص ٧٩.

(٢) نقد ونظر، عدد ٢، السنة الأولى، بهار (ربيع) ١٣٧٤، ص ٤٤.

أنه على أساس التصور الدفاعي لعلم الكلام يُحدّد العنصران . هدف الكلام ولغة وذهن مخاطبِيِّ الْوَحْيِ . طريقةُ هذا العلم . وتتطلب الأهداف الثلاثة لعلم الكلام طرقةً متعددة بشكل ينفي عن هذه الطرق الوحدة والاشتراك أساساً، إلا أنها تستعمل في إطار أهدافٍ معينةٍ، وقد تنبأَ الفارابي نفسه إلى هذه الملاحظة، وقدّم الطرق المتعددة والرائجة لمتكلمي عصره على هذا الأساس، ولا بد أن لتتنوع الطرق في علم الكلام تطويراً تاريخياً، فقد أغفل المعاصرُون الكثير من الطرق المتدالوة في العصور الماضية، وغابت عند السالفين الكثير من طرق المعاصرين، يقول الفارابي:

«أما الطرق والأراء التي يجب الدفاع عن الشرائع من خلالها فهى عبارة عن:

١. تعتقد مجموعة من المتكلمين أن دفاعهم عن الشرائع يجب أن يختزل في القول التالي: لا يمكن إدراك الشرائع وجميع أوامرها ونواهيهما بالأراء والإدراكات والعقول الإنسانية لعلو مرتبتها، لأن الشرائع جاءت عن طريق الوحي الإلهي والأسرار الإلهية كامنة فيها، تلك الأسرار التي تعجز العقول البشرية عن إدراكتها والوصول إليها. ويقولون أيضاً: الطريقة الوحيدة الممكنة أمام البشر للوصول إلى هذه الأسرار هي أن تعينه الشرائع على ذلك عن طريق الوحي، حتى يستفيد من معرفة أشياء لا يمكن للعقل إدراكتها ويعجز عن الوصول إلى حقيقتها؛ فلو كان الأمر غير ذلك لما كان للوحي معنى، فمن اللائق أن تعطي الشريعة للبشر علوماً يكون الحصول عليها خارجاً عن قدرة عقولنا؛ وأهمُّ من ذلك أن تجعل الإنسان يؤمن بأشياء ينكرها عقله، وكلما كان عدم الانسجام هذا مع العقل أكثر تكون فائدة أكثر.

٢. ترى مجموعة أخرى من المتكلمين أن عليهم لتأييد الشريعة أن يبدأوا أولاً بتجسيد صورة لها من خلال الفاظ واضح الشريعة نفسه، ومن ثم يصيرون اهتمامهم للمحسوسات والمعقولات والمشهورات. وإذا ما وجدوا فيها أو حتى في متعلقاتها البعيدة أشياء مفيدة في تأييد الشريعة فعليهم أن يستفيدوا منها، وإن وجدوا أشياء تتناقض مع الشريعة، وتمكنوا من تأويل الفاظ واضح الشريعة بشكل يلغى هذا التناقض فعليهم أن يقوموا بذلك، حتى وإن كان ذلك التأويل بعيداً جداً، وإن تعسر عليهم ذلك، وكان من الممكن لهم بطريقة ما أن يبطلوا هذا (الأمر) المتناقض مع الشرع أو أن يحملوه على وجه ما بحيث ينسجم مع الشريعة فعلوا ذلك.

وإذا حصل تضاد بين الشهورات والمحسوسات بشكل صريح وواضح، فينظرون في

المصارع أن يتخد موضعًا مناسباً وأن يحمل على خصميه ويدافع عن نفسه في مواجهة هجمات الخصم، لكنه في كل مرة لا يقوم بأحد هذه الأعمال منفردة؛ فردة الفعل التي يبيدها تجاه هجوم الخصم تؤثر في الموضع الذي يتخدنه والطريقة التي يهاجم بها خصميه. يوصف هذا النوع من النظم الديناميكية في علوم الحاسوب بعنوان «المعالجة المتتابعة». يبدأ الحاسوب عمله في وضعية خاصة إذ تتم المعالجة في عدة مراحل، وتستخدم نتيجة هذه المعالجات بعد ذلك كوضعية أولية لمعالجات أكثر. ومن الملاحظات ذات الأهمية أن نعرف أن هذا النوع من العمليات الديناميكية «المعالجة الفعالة» مستعمل في كل نوع من الأعمال العقلية؛ إذا أردنا أن ندافع عن نظرية فيزيائية علينا أن ننسق نظريتنا فثبت صحتها وندافع عنها في مقابل الانتقادات، ونظهر أفضليتها على بقية النظريات ومن الممكن أن نجدد النظر في تصورنا الأولي منذ بداية هذا المسار وحتى نهايته، والفارق يكمن في كون النظرية الفيزيائية تعمل ضمن نطاق المعطيات التجريبية بينما يعمل الكلام (الآليات) تحت ضوابط وحيانية^(١).

وقع الفلسفه الذين تمسكوا بالتصور الآلي لماهية الكلام في مثل هذه العملية الديناميكية، وتشبّثوا بالتأويل في كل الموضع التي وجدوا أنفسهم فيها غير قادرین على الدفاع عن آرائهم، وأعادوا بناء فهمهم للرؤى الدينية، وهذا الأمر لا يخلو من المشكلات من جانب الطريقة والمحدد الوحييin؛ لأن أساس الإشكالية يكمن في هذا المعنى من العملية الديناميكية؛ إعادة فهم المحددات الوحية.

٦- طرق الكلام متعددة:

اعتقد البعض أن الكلام الرا�ح في الثقافة الإسلامية ذو طريقة واحدة، والحقيقة

(١) الفارابي، إحصاء العلوم ص ١١٥ . ص ١١٩ . تمت الترجمة من النص الفارسي لعدم توفر النص العربي.

الملحوظة الثانية: أن الفارابي يطرح تنوع الطرق في البعد الداعي للكلام فقط، في حال أن للكلام طرق وأساليب أخرى في البعدين الآخرين، يعني تصحيح العقائد الدينية وإثبات تعاليم الوحي وتنوع طرق الكلام في إيفائه للأدوار الثلاثة المذكورة؛ يتاسب مع ذهن ولغة مخاطب الوحي، ولذلك فلا حد ولا حصر له: الطرق السيميائية، والهرمنوطيقية، والنقلية، والتجريبية، والبرهانية، والخطابية، والإرجاع إلى الشواهد اللغوية، والأبحاث الميدانية. الإحصائية، والتاريخية، و..... الخ.

الملحوظة الثالثة: لم تتم الإشارة في فهرست الفارابي إلى أشخاص يدعون أنه بالإمكان إثبات جميع الاعتقادات الدينية بالطرق الكلامية. يوجد لعلم الكلام حد معين في إيفاء وظيفته الداعية؛ قال البعض في تعين هذا الحد: للكلام من هذا الجانب منطقتان: الأصول الأولية والتي يمكن للمتكلم فهمها وإثباتها، والأمور التي لا يمكن لها فهمها ولكن إدراكتها ضروري وحيوي بالنسبة له. في المنطقة الثانية يكون دفاع علم الكلام بوساطة؛ وبتعبير ملachiha يضع المتكلم قول المعصوم عليه السلام في الحد الأوسط للبرهان^(١).

٧ - للكلام مسائل «متعددة الأصول»^(٢):

يبقى الكلام في هويته الداعية دائماً عرضة لظهور مسائل متعددة ليس بالضرورة أن تكون نتيجة للتحقيق في أحكام وعوارض هذا الموضوع الذاتية، بل نتيجة لتأملات الباحثين في المعرفة البشرية الأخرى ، وكذلك فقد تكون مسائل هذا العلم ثماراً لعدة علوم. ومن النماذج على المسائل التي تحظى بالبحث في العلوم المختلفة من عدة أوجه مسألة أسباب النزعة إلى الدين وإفرازات الدين التي لها أصول متعددة: علم النفس، علم الاجتماع، التاريخ، وهنالك أهمية كبرى لوجود المسائل، متعددة الأصول في تعين الأضلاع المعرفية للكلام الجديد.

(١) .Multipleorigens

(٢) إن امتلاك علم الكلام الهوية المعرفية لا يعني أنه مولّد للمعرفة بالضرورة، لأن كون الكلام معرفة أعم من الهوية الآتية وهوية التوليد المعرفي؛ فالكلام بكل وجه علم ومعرفة بكل الخصائص المنطقية للمعرفة وحسب التصور الذي يمكن الحصول عليه من النسبة بين البحث الكلامي والمعرفة المرتبطة به، فهذه المعرفة إما آليات دفاع وإنما علم مولّد للمعرفة، لأن علم الكلام إنما أن يكون مسبوقاً بالمعرفة أو يكون سابقاً لها.

هذه الحالة إلى أيهما أقوى لتأييد الشريعة ويأخذون به، ويتركون الآخر ويبطلوه. وإن تعسر حمل كلام الشريعة على أي من هذه الموارد تصبح حيلتهم الوحيدة حينها للدفاع عن تلك الأصول أن يروا أن الحق هو هنا فقط؛ لأن المخبر عنه لا يمكن أن يكذب أو يخطئ. وتقول هذه الجماعة في مثل هذه الحالات نفس ما قالته المجموعة السابقة بخصوص جميع موارد وأصول الشريعة. (مصدق قول الفارابي هذا، موقف ابن سينا من المعاد الجسماني).

٣. تعتقد مجموعة أخرى من المتكلمين أنه يجب الرد على كل انتقاد بنظيره، أي أن على المتكلم أن يحقق ويبحث فيسائر الشرائع وينتخب منها ما هو متضاد وخطيء، حتى إذا حاول أحد أتباع شريعة أخرى أن يظهر خطأ في شريعتهم، كانوا قادرين على المواجهة من خلال تقديم نقاط الضعف المشابهة الموجودة في شريعة الخصم ويدافعون بهذه الطريقة عن شريعتهم.

٤. عندما تدرك مجموعة أخرى من المتكلمين أن أدلة لهم للدفاع عن أصول الشريعة لا تكفي،، يضطرون في مثل هذه الواقع للقيام ببعض الأعمال لإيقاف الخصم عن المقاومة، أي إما أن يوبخونه أو يخيفونه بالتهديد. (ما يعرف في الاصطلاح المنطقي باسم التبكيت الخارجي والذي يعد مغالطة في المعايير المعرفية).

٥. تعتقد مجموعة أخرى من المتكلمين أنه طالما أن شريعتهم صحيحة من وجهاً نظرهم فيجب عليهم الدفاع عنها في مواجهة الآخرين بأن يظهروها على أنها هي الحسن، ويدفعوا الشبهات عن حمامهم ويقمعوا الخصم بكل وسيلة ممكنة، وهذه المجموعة لا تتوانى عن استخدام الكذب والمغالطة واستثارة الصراعات^(١).

توجد في أقوال الفارابي عدة ملاحظات حرية بالاهتمام: الملاحظة الأولى : أن الفارابي لا يوافق على جميع الطرق ولا يعلن عن الطريقة التي تحظى بقبوله، أما الغزالى الذي أخضع كلام القدماء الداعي للنقد، فقد اعتبر الطرق الأخيرة وبخاصة الطريقتين الرابعة والخامسة مصداقاً للجدل المذموم، ولا يرىفائدة ترتبت عليها في الدعوة إلى الدين إلا تخرير الإيمان والإضرار به.

(١) جوادی آملي «كلام جدید» در، کلام جدید درکذراندیشه ها، به اهتمام على أوجبی (طهران، ۱۳۷۵). ص ٢٧. من ٢٥

العلم بمنزلة ملاك له غالباً، وانطلقوا في مقام البحث عن أن مسائل الكلام مبنية لعوارضه الذاتية؛ ولذلك ظهرت نتيجة لذلك خلافات عقيمة واسعة النطاق، وسنقوم من خلال التأمل في وجهات النظر المتعددة في تعين موضوع الكلام بتحليل هذا الوضع المعرفي المهم لهذا العلم.

١ - وجهات النظر الرئيسية في بيان موضوع الكلام:

يعود الاختلاف الأساسي بين التعريفات المرتبطة بهوية التوليد المعرفي لعلم الكلام إلى تعين موضوع هذا العلم. فإذا كان الكلام مولد للمعرفة فيجب تعريفه طبقاً للموضوع؛ ما هو موضوع علم الكلام؟ قدم اللاهيجي في «شوارق الإلهام» تقريراً مفصلاً حول آراء العلماء بهذا الخصوص، ومن وجهة نظره فإن هناك ثلاثة رؤى قابلة للدراسة:

أ. وجهة نظر المتكلمين المتقدمين الذين يرون أن موضوع الكلام «موجود من حيث هو موجود».

ب. وجهة نظر بعض المتأخرین من أمثال القاضي الأرموي الذين يرون أن ذات الباري هي موضوع علم الكلام.

ج. وجهة نظر أكثر المتأخرین الذين يعتقدون أن موضوع الكلام هو «العلوم» من باب أن القصائد الدينية مرتبطة به^(١).

وتقرير اللاهيجي حري بالمناقشة من جهة اشتتماله على جميع وجهات النظر، ومن جهة دقته التاريخية. والأدق مما، ورد فيه أن نقول: توجد خمس نظريات رئيسية في بيان موضوع علم الكلام وهي:

١. ذات الواجب تعالى (وجهة نظر الشيخ الطوسي وأتباعه).

٢. أنه موجود بما هو موجود (وجهة نظر الغزالى).

٣. ذات الواجب تعالى والممكنات (رؤى أغلب علماء القرنين السابع والثامن الهجريين)^(٢).

ثانياً: هوية التوليد المعرفي لعلم الكلام

إن التصور الرئيس الثاني لماهية علم الكلام هو اعتباره مولدًا للمعرفة^(١)، ولظهوره ورواج هذا التصور سببان:

أولاً: إعراض بعض العلماء عن الأفكار الفلسفية اليونانية، واليأس المعرفي من وصول العقل المحسن إلى معرفة الوجود، والتوقع تبعاً لذلك أن يتم الحصول على معرفة الوجود من خلال الوحي.

ثانياً: الاعتقاد بعدم جدوى علم الكلام الرائق على أساس التصور الدافع له، فهو بسبب دخوله في جدلات عقيمة لم يسمم في إثارة وترويج المعرف.

تقوم رؤية الاعتقاد بالتوليد المعرفي للكلام على أن هذا العلم مثله مثل سائر العلوم الحقيقة له خصائص معرفية، فكل علم مولد للمعرفة. على أساس قواعد منطق العلوم عند القدماء. له ثلاثة أركان أساسية: المبادئ والمسائل والموضوع.

أما المسائل فهي الأحكام والعوارض المرتبطة بأمر واحد، أو أمور منسجمة (الموضوع)، ويتم إثبات المسائل على أساس مبادئ معينة وبنحو منهجي، وللموضوع هنا دورٌ رئيسيٌّ وأساسيٌّ، فيه يمكن تمييز مسائل العلم عن سائر العلوم، وبه تتحقق وحدة مسائل كل علم؛ ولذلك فإن العلوم المولدة للمعرفة تعرف بحسب الموضوع في نظرية المعرفة عند القدماء.

جاء تصور أغلب القدماء عن موضوع العلم في القاعدة المعروفة «موضوع كل علم ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية». وعلى أساس هذا التصور فموضوع كل علم هو الأمر الذي يبحث فيه عن عوارضه الذاتية في ذلك العلم، وهذا التعريف واحدٌ من التعريفات المحتملة في ماهية موضوع العلم، وهذا التصور مقصور على العلوم البرهانية كما ذكر الفلاسفة، أما بخصوص العلوم غير البرهانية، فيجب الحصول على تصور آخر حول موضوع العلم.

اتخذ علماء الكلام، الذين تحدثوا عن موضوع علم الكلام، هذا التصور عن موضوع

(١) مثل: الفتى حميد في قاموس البحرين ص ٤٤.

(٢) الإيجي، المواقف، ص ٧.

٤. العلوم. الأمور المعلومة. من باب أن إثبات العقائد الدينية مرتبط به (رؤى القاضي الإيجي وأتباعه).

٥. المعارف الدينية بشكل عام (رؤى بعض المعاصرين). يظهر التأمل في التسلسل التاريخي لظهور النظريات السابقة أنَّ أغلب تصورات الخلف هي في الواقع ترميمٌ وإعادة بناء لرؤى السلف.

٢- الكلام معرفة الوجود الإسلامية:

يعتبر الغزالي أنَّ موضوع الكلام هو «أعم الأمور، أي الوجود. فأساس الكلام كما هو الحال في الفلسفة هو معرفة الوجود، لكن الكلام خلافاً للفلسفة لا يبني على العقل المحس بل تطلق تسمية علم الكلام على معرفة الوجود المستمدَّة من القرآن، تم نقد تصوَّر الغزالي هذا على يد القاضي عضد الإيجي وسعد الدين التفتازاني، وأورد الإيجي ملاحظتين انتقاديتين عليه:

الملاحظة الأولى: أنَّ أموراً كثيرة مما يبحث في علم الكلام لا يمكن إرجاعها إلى الموجود بما هو موجود مثل أحكام المدعوم والحال والأمور التي لا يلاحظ تحققها الخارجي ولا تدرس باعتبارها موجودات (مثل: الرأي، الفكر الدليل،...).^(١)

تم إظهار هذا الانتقاد بخصوص موضوع الفلسفة الأولية أيضاً، وأجاب عليه الفلاسفة غالباً عن طريق نظرية الوجود الذهني، والتي لا يمكن طرحها بخصوص هذه الإشكالية في علم الكلام.

عبارة «الأمور التي لا يلاحظ تتحققها الخارجي» تدحض الإجابة التي تستند إلى نظرية الوجود أساساً، إضافة إلى أنَّ المتكلمين بخلاف الفلاسفة لا يعتقدون بالوجود الذهني كما ذكر الشارح الإيجي؛ ولذلك فليس لديهم إجابة على مثل هذا النقد.^(٢)

قدم التفتازاني طريقة لحل إشكالية ارتباط المسائل المتعلقة بالنظر والدليل (المباحث المعرفية والمنطقية في علم الكلام) «بالموجود بما هو موجود»، وتبدو هذه النظرية مهمة من حيث المنهجية:

فمن وجهة نظره، رغم أنَّ المباحث المتعلقة بالنظر والدليل ليست من المسائل

(١) الجرجاني، شرح المواقف، (مصر ١٢٢٥ هـ)، ج ١، ص ٤٨.

(٢) الغزالي، المستصفى، ج ١، ص ٦.

الكلامية وعارض الموجود بما هو موجود إلا أنها من المبادئ التصورية والسلمات لعلم الكلام، ويأتي بها المتكلمون باعتبارها مباحث أولية في آثارهم.

ومغزى التفتازاني أنه يمكن اعتبار الكلام معرفة وجود مستندة إلى القرآن، واعتبار طرح المباحث المتعلقة بالنظر والدليل من مبادئه المعرفية. رغم أنَّ طريقة حل التفتازاني دقيقة منطقياً لكنها لا تنسجم مع نظرية الغزالي، فمن وجهة نظر الغزالي والكثير من المتكلمين الذين يعتبرون الكلام علمًا مولداً للمعرفة، فإنَّ الكلام أفضل معرفة وأكمل علماً^(١). وبما أنَّ المباحث المتعلقة بالنظر والدليل ليست بدديهيَّة، فنحن بحاجة إلى علم أشمل من الكلام في الطرح الاستدلالي لهذه المباحث بحيث تتحقق مبادئ الكلام في ذلك العلم، في حال أنه لا يوجد علم أشمل وأكمل من الكلام، وبناءً عليه، فطريقة حل التفتازاني لا تدفع انتقاد الإيجي على نظرية الغزالي، وقد تنبه الإيجي إلى طريقة الحل هذه في توضيحه وردها بالقول «في حال أنَّ الكلام أكمل العلوم».

الملحوظة الثانية: وهي تتعلق بقيد «طبق قانون الإسلام». يرى الإيجي أنه بدون الأخذ بهذا القيد لا يبقى تميز بين الكلام والفلسفة، ومع الأخذ بهذا القيد فإننا نواجهُ بخللين:

أولاً: في أي علم يجب التتحقق من ملائكة كونه مطابقاً لقانون الإسلام، فكل شخص يرى أنَّ آراءه محققة ومطابقة للوحي.

ثانياً: الكثير من المسائل التي جاءت في كتب الكلام تحت عنوان المسائل الكلامية (كلام المحقق) إما كفرٌ صريحٌ (مثلاً آراء المجسمة) وما بادعه (مثلاً آراء المعتزلة)^(٢).

أجاب التفتازاني على هذا الانتقاد أيضاً بـ«تفسير جديد لتعبير «على قانون الإسلام». فمن وجهة نظره: المراد من قانون الإسلام هو السعي إلى أن يكون التفكير في علم الكلام على أساس ضوابط الوحي، وبشكل يجعل تحقيق جميع المباحث ملتزماً بالقواعد الشرعية ولا يتعارض مع قطعيات الوحي، وليس المراد أن تكون جميع المسائل متطابقة مع الوحي^(٣). (كما هو متعارف عليه في علم الفقه).

(١) المواقف، ص ٩.

(٢) شرح المقاصد، ج ١، ص ١٧٧ - ص ١٧٨.

(٣) من هؤلاء: الجرجاني في شرح المواقف ج ١، ص ٤٢، واللاهيجي في شوارق الإلهام ج ١، ص ٩ وبدوي في تاريخ الأفكار الكلامية في الإسلام، ج ١، ص ٢١.

٣- الكلام إلهيات قرآنية:

تُنسب نظرية «موضوع علم الكلام ذات الباري تعالى» في أغلب مصادر علم الكلام

إلى القاضي سراج الدين الأرموي (٦٨٢. ٥٩٤)^(١). لكن الدقة تقتضي أن تتعقبَ هذه النظرية في القرون السالفة.

كان الشيخ الطوسي (٤٦٠ . ٣٨٥) من أوائل الذين طرحو تصوّر التوليد المعرفي لعلم الكلام، وقدّم في رسالته «شرح العبارات المصطلحة بين المتكلمين» عدّة تصورات عن موضوع علم الكلام.

قال أصحاب هذه النظرية: موضوع علم الكلام ذات الباري تعالى، لأن علم الكلام يبحث في العوارض الذاتية للحق «جل وعلا» أي: صفاته الثبوتية والسلبية، وأفعال في الدنيا والأخر، وكذلك أحكام أفعاله كوجوب البعثة، ونصب الإمام، والثواب والعقاب. وعلى هذا الأساس، تقسم مسائل الكلام إلى ثلاثة أقسام: المسائل المتعلقة بصفات الله، والمسائل المتعلقة بأفعاله في الدنيا والأخر، والمسائل المتعلقة بأحكام أفعاله، وتؤسساً عليه يمكن القول أن مسائل علم الكلام تتحدث عن ذات الباري «عز وجل» (الذات، الصفات، الأفعال) وذات الباري هي موضوع علم الكلام.

على أساس اعتبار الله موضوعاً لعلم الكلام واعتبار الكلام إلهيات يصبح التمايز بين الإلهيات الكلامية والإلهيات الفلسفية (الإلهيات بالمعنى الأخص) مبهماً ومثيراً للتساؤلات. وأشار الشيخ الطوسي إلى هنا التمايز بذكر قيد «على قانون الإسلام». فالكلام إلهيات قرآنية، بينما الإلهيات بالمعنى الأخص عند الفلسفه إلهيات عقلية. وقد اختلف في تبيين العلاقة بين إلهيات الفلسفه (الإلهيات بالمعنى الأخص) وإلهيات الحكماء والمتكلمين المستندة إلى الوحي:

أما الفلسفه فيقولون بوحدتهما: لا يوجد اختلاف بين الإلهيات المستندة إلى العقل المحسن والإلهيات المستندة إلى الوحي. وأما أصحاب المدرسة التفكيكية والسلفيون فيبدون اختلافاً كبيراً بين هذين النظارتين المعرفيتين، ويرى هؤلاء أن واجب الوجود عند الفلسفه لا ينطبق مع الأركان القرآنية لله بدقة، وكذلك فإن تفسير الحكماء للوحي والنبوة والإعجاز والمعاد و....ليس هو ذلك الذي تم تبيينه في القرآن. على كل حال سعى متكلمو الشيعة الكبار كالشيخ الطوسي إلى بناء إلهيات قرآنية

في مقام التحكيم بين الإيجي والتفتازاني من الضروري التنبه إلى الملاحظة النهجية التالية: للعلم مقامان: مقام التعريف ومقام التحقق. يشتمل العلم في مقام التعريف على مسائل خالصة وصادقة وكاملة، بينما لا يخلو في مقام التتحقق من النقصان والكذب، والاشتمال على مسائل لا علاقة لها بالعلم. وتأسساً على ذلك يمكن القول: كلام الغزالي مرتبط بمقام التعريف بينما نقد النقاد وإجابة المجيب مرتبط بمقام التتحقق، وعلى أساس التمايز بين مقام التعريف، ومقام التتحقق يتضح التمايز بين الفلسفه والكلام؛ بناءً على نظرية الغزالي بشكل أفضل: الفلسفه تحصيل للمعرفة بناء على مقتضى العقل البشري المحسن. والكلام تحصيل للمعرفة طبق ضوابط الوحي والتوجيهات السماوية، كما أن ابتناء البحث الفلسفه على موازين العقل لا يعني بالضرورة أن جميع المسائل المتداولة بين الفلسفه (الفلسفه في مقام التتحقق) ثابتة على قواعد العقل الصريح، وكذا الأمر بالنسبة لابتناء البحث الكلامي على موازين الوحي. فموضع كلا العلمين هو تحصيل المعرفة بالموجود، بما هو موجود ومعرفة الوجود؛ فالفلسفه يقومون بتحصيل المعرفة بدون الالتزام بضوابط الوحي سواء كانت نتائج التحقيق مسائل جاء بها الوحي أم لا، والمتكلم كذلك يقوم بتحصيل المعرفة بالالتزام بضوابط الوحي سواء كان ما يحصله عملياً مطابقاً للوحي حقيقة أم لا.

تجدر الإشارة إلى الانتقاد التالي: لا يمكن اعتبار أغلب مسائل الكلام أحكاماً وجودية عامة؛ فالنبوة الخاصة، والمعجزات، والعصمة، والثواب والعقاب، وتنصيص الإمامة، والمسائل التي تعين المصاديق، هي من المسائل التي لا يمكن أن تنطبق مع الأحكام العامة للوجود كما يتم بحثها في مباحث الكلام.

تفيد التطورات التاريخية لعلم الكلام أن المتكلم لم يتقيّد بالموجود بما هو موجود، والتصوّر بأن هذه المسائل استطرادية، الذي هو إحدى الإجابات الرائجة لهذا الإبهام ليس إلا استثناء للأكثر من الأقل الأمر الذي يعتبر خللاً عند العقلاء. وتأسساً عليه، فإن اعتبار موضوع علم الكلام الموجود بما هو موجود ليس صحيحاً بالمعايير المنطقية ولا ينسجم مع التطور التاريخي للكلام.

(١) في المقارنة بين الإلهيات الفلسفية والكلامية يرجى مراجعة: هاشمي كليبايكاني، نفيسه، درس تطبيقي مسائل خداشناس در آثار شیخ مجید وشیخ الرئیس، وبایان نامه کارشناس ارشدیه إشراف محمد مجتبه شیستري واحد فرامرز قرامکی، دانشکده الهیان و معارف السلامی رانشکا و طهران ۱۳۷۷.

العلم وليس من مسائله، في حال أن إثبات وجود الله يتم في علم الكلام كمسألة^(١). وهذا الانتقاد مستمد في الأساس من نقد ابن سينا على نظرية «موضوع الإلهيات الباريء تعالى»^(٢).

يتمسّك الإيجي في إثبات مدعاه باستدلال يُعرف في الاصطلاح المنطقي بقياس ذي حدّين السالبة المركبة^(٣) :

إثبات الصانع إما بديهيٍ وإما نظري، والقول الأول خطأ، وفي حال صحة القول الثاني إثبات الصانع إما مسألة كلامية وإما متعلق بعلمٍ أكمل يقوم البحث في مبادئه علم الكلام، الوجه الأول خطأ؛ لأن إثبات وجود الموضوع من مبادئ العلم وليس من مسائله، وفي الوجه الثاني يمكن السؤال أيضاً، هل يوجد علم أكمل من الكلام في العلوم الشرعية أم لا، الوجه الثاني باطل لأن ابتناء العلوم الشرعية على العلوم غير الشرعية ليس صحيحاً والوجه الأول باطل أيضاً لأنَّ الإجماع أنَّ الكلام أكمل العلوم الشرعية.

ويتمكن رسم قول الإيجي بيانياً بالشكل التالي:

٤ - موضوع علم الكلام واجب الوجود والممكنات:

هذه النظرية ترميم وإعادة بناء لنظرية الشيخ الطوسي تم تقديمها في القرنين السابع والثامن الهجريين، على سبيل المثال يقول مؤلف قاموس البحرين: «موضوع علم الكلام ذات الله تعالى من حيث هي، والممكنات من حيث أنها في ريبة الحاجة إلى الله تعالى : لأن موضوع كل علم شيء الذي يبحث في ذلك العلم من الأعراض الذاتية لذلك الشيء أي الأوصاف التي هي منشأ تلك الذات، والبحث في علم الكلام عن أحوال هاتين الذاتين، فموضوع هاتين الذاتين يكون موضوع علم الكلام»^(٤).

لم يتتبه مؤلف قاموس البحرين إلى السؤال التالي: طلما أن الموضوع يمنح المسائل

(١) ابن سينا، *الشفاء*، الإلهيات، ص ٥، ص ١٦ إلى ص ٧-١٢.

Complex des tructive dilemma (۲) موحد ضیاء، وثره نامه توصیفی منطق (انگلیس به فارسی) طهران،

. ٣٠، ص ١٣٧٤

^{٤-٣}) مفتى حميد، قاموس البحرين، ص ٤٤.

دون أن يقلدوا ويتبعوا الفلاسفة في ذلك، وحظى تصورهم هذا بقبول أغلب المتكلمين في القرن السابع، ويعودذلك إلى عدم رضا المتكلمين عن إلهيات الفلسفه (بالمعنى الألخص).

إن مناقشة مفهومي واجب الوجود والخالق، ومقارنة جدول صفات الواجب تعالى عند الفلسفة بالأوصاف السبعة للباري تعالى ، وتحديد علاقة الإنسان بالله عند الحكمة والمتكلمين تظهر جميعاً الفجوة والتمايز بين نظامي الإلهيات هذين^(١) . والعبارة التالية أنموذج على الاحتجاج الرائق في القرن السابع على الإلهيات الفلسفية:

يتحدثون عن إلهٍ موجب الوجود (واجب الوجود) ليس مختاراً، لو قال كل الأنبياء بذلك لما قبلتُ به، ولقللتُ لستُ أريدُ لهذا الإله أريدُ لها فاعلاً مختاراً وأتوجه إلى هذا الإله وأدعوه أن ينسف ذلك الآلة الذي يتحدثون عنه»^(٢)

أخضع القاضي الإيجي نظرية كون ذات الواجب تعالى موضوع الكلام إلى النقد من جانبين: الجانب الأول أن علم الكلام يشتمل على مباحث كثيرة لا يمكن اعتبارها أمراضًا ذاتية للواجب تعالى؛ كالبحث في الجوهر والأعراض الذي يُبحث في علم الكلام بنحو مستقل وليس من باب كونها أفعال الباريء تعالى. ويقول الإيجي مجيباً على الإشكالية التي يتحمل توجيهها إلى نقهـة: إذا قيل إن مباحث الجوهر والعرض من مبادئ علم الكلام فيجب القول إنه ليس من شأن علم الكلام التحقيق في هذه المسائل طبق قاعدة «مبادئ العلم ليست من مسائله»؛ ولذا فنحن بحاجة إلى علم أكمل لتبينها، في حال أنه لا يوجد علم مبنيٌ عليها أكمل من الكلام، إضافة إلى أنه ليس من اللائق ابتناء علمٍ شرعيٍ على علمٍ غير شرعيٍ وليس في العلوم الشرعية أكمل من الكلام^(٣).

ويظهر كلام الإيجي هذا بوضوح عزوفه عن التصور الدفاعي لعلم الكلام إلى تصور التوليد المعرفي له. الجانب الثاني لنقد الإيجي جانب منطقي: فعلى أساس قواعد منطة العلوم فإن موضعه العلم من حيثته (التصورية والتصديقية) هو من مباديء

(١) شمس تبریزی، مقالات، بااهتمام صمد موحد، ص ٦٣٥.

المواقف، ص ٧.

المواقف، ص ٧.

موضوع العلم. وعلى أساس هذا التصور يعتقد اللاهيجي أن جميع التعريفات التي قيلت في موضوع الكلام قابلة للنقد بنحو ما، ومن وجهة نظره فالكلام والعلم الإلهي (الفلسفة الأولية) مشتركان بالموضوع، وإذا كان هناك فرق بينهما فهو يعود إلى المطابقة للشرع أو عدمها وليس هناك حاجة إلى التقاليد المذكورة، وتلك في الواقع عودة إلى نظرية الغزالي^(١).

٦ - موضوع الكلام المعرف الدينية:

قدم الكثير من المتأخرین تصوراً عاماً عن موضوع علم الكلام على أساس أنأخذ العوارض الذاتية في تعريف العلم خاص بالعلوم البرهانية ولا حاجة له في علوم الكلام.

وطبق هذه النظرية فالكلام علم متعلق بالتعاليم الدينية بشكل مطلق، و مجرد امتلاك هذا التعلق بأمر ما يكفي في مناطق الموضوعية، ولهذا السبب يقول الأستاذ المطهری في تعريف الكلام الإسلامي: «العلم الذي يبحث حول أصول الدين الإسلامي»^(٢). وهو التعريف الذي يوجد أيضاً في تعابير أبي حیان التوحیدي. والمراد بأصول الدين المقولات الأساسية للتعاليم الدينية التي ترتبط بها جميع التعاليم، ويُظهر كلام المحقق أن موضوع هذا العلم لا ينحصر بأصول الدين بل إن جميع المقولات الدينية قابلة للبحث في علم الكلام بنحو ما.

٧ - موضوع الكلام الإيمان الإسلامي:

ترى مجموعة من المعاصرین أن الإيمان الذي ظهر على منصة الوجود بعد ظهور الرسول ﷺ هو موضوع علم الكلام. وهذا الاعتقاد اتجاه جديد ظهر في القرن الأخير لدى المتألهين نتيجة لإنصراف عن الإلهيات إلى الأبحاث الدينية. إن الإيمان هو محور مطالعات الكلام باعتباره حقل للأبحاث الدينية المعاصرة. وبالطبع تم تقديم صياغة جديدة لمفهوم الإيمان في هذا الاتجاه.

وحدتها، والأمر الموحد يجب أن يتمتع بالوحدة، فكيف يتم تأمين الوحدة إذا قلنا بازدواجية علم الكلام؟!

سؤال: إذا كان موضوع علم الكلام متعدد من الضروري أن يعود المتعدد إلى واحد بينما ما نحن فيه «ذات الله تعالى من حيث هي وذات المكنات من حيث أنها في ربيقة الحاجة إلى الله تعالى» فعل ماذا يعود؟. الجواب: هاتان الذاتان تعودان إلى موجود وهو الشيء الواحد^(١).

الخلل المنطقي في إجابة مؤلف قاموس البحرين واضح، فهذه الإجابة ليست فقط عاجزة عن بيان الملاك الموحد لمسائل الكلام بل هي عودة إلى التصور الأول عن موضوع الكلام. بالطبع هناك ملاحظة كامنة في تعبيره: على أساس تقريره؛ فالإلهيات ومعرفة الكون الكلاميتان هما بمعنى معرفة علاقة احتياج المخلوقات لله؛ ولذا يمكن القول إن عالم المكنات من احتياجاته إلى الله تعالى هو موضوع علم الكلام، لكن انطباق هذه النظرية على جميع المسائل هو موضع شك من جانبي الاطراد والانعكاس.

٥ - موضوع الكلام المعلومات السابقة لإثبات العقائد الدينية:

يمكن الحصول على التفسير الرابع لموضوع الكلام من القاضي الإيجي، ويمكن إيجاده كذلك بشكل متطور ومرمم عند التفتازاني، يقول الإيجي: «موضوع علم الكلام المعلوم، من حيث أن العقائد الدينية مرتبطة به بنحو مباشر أو غير مباشر^(٢).

تفسير كلام الإيجي هو أن مسائل علم الكلام إما العقائد الدينية أو الأمور التي تتوقف على العقائد الدينية مثل تركيب الأجسام من الجواهر المفردة، والجو من الخلاء، ونفي الحال، وعدم تمييز المعلومات، و.....، والموضوع الذي يشتمل على كلا القسمين هو المعلوم الذي يشتمل على الموجود والمعدوم والحال^(٣).

نقد هذا التصور كل من: الجرجاني في «شرح المواقف»، واللاهيجي في «شوارق الإلهام». وطرحت أغلب الانتقادات على أساس تصورأخذ العوارض الذاتية في تعريف

(١) المواقف، ص ٧.

(٢) شرح المواقف، ج ١، ص ٤٠ - ٤٢.

(٣) شوارق الإلهام، ج ١، ص ١١.

(١) الأستاذ المطهری، مجموعة آثاره، ج ٣، ص ٥٨.

(٢) الجرجاني، شرح المواقف، ج ١، ص ٥٢ - ٥٣.

٨ - فوائد علم الكلام:

يعرف مؤيدو التصور الالئي علم الكلام بالغاية والهدف، ويعرف مؤيدو تصوّر التوليد المعرفي الكلام حسب الموضوع. وتعريف معرفة الكلام حسب الموضوع لا يتنافى مع امتلاك الهدف والفائدة، كما أنَّ التعريف الغائي لا يتنافى مع امتلاك الموضوع. وقد طرح الأشخاص الذين يؤكدون على التعريف الموضوعي للكلام البحث في فوائد هذا العلم في إيضاحاتهم لدور علم الكلام.

دور علم الكلام في نظريةِهم عبارة عن:

١. الترقي من حضيض التقليد إلى أوج اليقين والتحقيق.
 ٢. إرشاد ووعظ الآخرين عن طريق تبيين الحجة وإقامة البرهان.
 ٣. حفظ قواعد الدين من هجوم شبّهات المخالفين والمنكرين (كالمحدّين).
 ٤. وضع فروع الدين على أصول وأسس عقائدية ثابتة. وفي هذا الدور إشارة إلى ممية علم الكلام في مجال الفقه.

أهمية علم الكلام في مجال الفقه.

٥. إيجاد الإخلاص في العمل والاعتقاد الصحيح عند الأفراد وايصالهم للفوز والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

باستثناء الوظيفتين الثانية والثالثة اختلف العلماء المسلمين حول مدى نجاح علم الكلام في مقام التتحقق في إيفاء جميع الوظائف السالفة واتخذوا مواقف وأراء متضادة خاصة فيما يتعلق بالوظيفة الأخيرة، وتتكر النظرية المشهورة إيفاء علم الكلام مثل هذا الدور بالنظر إلى تاريخ الأفكار الكلامية^(١).

٩ - ملاحظة تاريخية:

راجع تصوّر التوليد المعرفي لعلم الكلام منْ أواوِل القرن الخامس لأسباب تاريخية، ومن خلال المرور على التعريفات التي ذُكرت في الفصل الثاني، يتضح أن هذا التصوّر يعود إلى أشخاص مثل أبي حيّان التوحيدي، والشيخ الطوسي، والغزالى. ولم تحظ رؤية الغزالى الخاصة القائمة على أن موضع الكلام الموجود بما هو موجود بقبوِ المتأخرين فاتيغ لهم الشيخ الطوسي، واعتبروا أن موضع الكلام هو ذات الواجب وصفاته.

(۱) فرامرز قراملکی: أحد «جایگاه منطق در معرفت بشری»، فرهنگ، کتاب جهارمین چاپ، بهار و بایز ۱۳۶۸، ص ۲۶۳- ۲۸۸.

(❖) الواسطة هي الجوهرة في وسط القلادة، وقد تأتي بمعنى الواسط: وهو الجالس وسط القوم فلا يصح نعت علم الكلام بالواسطية باعتبار كونه وسيطاً بين طرفين بل يقال: وساطة أو وسيط.

(١) من أمثال: بدوي، عبد الرحمن: *تاريخ الأفكار الكلامية في الإسلام*، ج ١، ص ٢٢.

١- الهوية المعرفية للكلام:

يتصور أغلب المؤرخين وأصحاب نظرية المعرفة أن الهوية الآلية تنفي الهوية المعرفية، ويمكننا الإشارة إلى النموذج من هذا التوهم فيما يتعلق بعلم المنطق: اعتبر البعض أن كون المنطق آلة لاكتشاف الأخطاء يعني نفي الهوية المعرفية له، وتم توضيح الحال المنطقي لهذا التوهم في مقالة قصيرة تحت عنوان «مكانة المنطق في المعرفة البشرية»^(١).

تؤمن البعض كذلك أن الهوية الدفاعية الآلية لعلم الكلام تعني نفي الهوية المعرفية له، في حال أن الوجه المشترك للتوصيريين المذكورين لعلم الكلام يكفي لاعتباره معرفة. يعتبر البعض. ومن يؤكدون على الهوية الدفاعية للكلام. كالفارابي أن الكلام صناعة نظرية وعملية، فالمتكلم يقدم النظام الاعتقادي على شكل نظام معرفي وتلتزم الأركان المعرفية كالأسس المنهجية، والاتجاه في التحقيقات الكلامية، بضوابط وقواعد منطق العلوم، وتأسياً عليه فالتأكيد على الهوية المعرفية لعلم الكلام هو أحد أهم مواضع التوافق بين التوصيريين الرئيسيين.

٢- الاستناد إلى المتنون الدينية:

إن تعلق علم الكلام بالمتنون الدينية هو أحد مواضع التوافق بين تصور التوليد المعرفي والتصور الآلي لعلم الكلام؛ فالكلام في التصور الآلي يقوم بالدفاع عن تعاليم المتنون الدينية، وعليه فهو متلزم بالتعاليم الدينية في المتنون المقدسة. وهو يقوم كذلك بتحصيل المعرفة في عالم الوجود من خلال المتنون الدينية في تصور التوليد المعرفي؛ ولذلك فهو يستند إلى التعاليم الدينية في الوحي. فالاستناد إلى المتنون الدينية هو أحد وجوه الاشتراك بين هذين التوصيريين من جانب، ومن جانب آخر فإن التفاوت بين الكلام والفلسفة التي لا تعمل على أساس الوحي (رغم أن الكثير من النظم الفلسفية منسجمة مع الوحي) يثبت أن الاستناد إلى الوحي هو الذي يحدد هوية علم الكلام، ويبين البناء المنطقي للمسائل، وطرقها وأالياتها.

٣- برنامج ترويج وتعليم:

بناءً على هذين التوصيريين فالكلام برنامج ترويج وتعليم للتعاليم الدينية، فشأن

المتكلم كشأن مبلغ الدين سواء في النظرية الداعية أو في نظرية التوليد المعرفي؛ فهو يعلم تعاليم الوحي ويرفع عوائق قبولها وتعلمه.

٤- الهوية الوساطية:

يختلف علم الكلام عن سائر العلوم أساساً من حيث أن له هوية وساطية، وهذه الهوية هي أهم وجه مشترك بين التوصيريين الرئيسيين لغاية الكلام؛ المراد من الهوية الوساطية أن الكلام وساطة معرفية بين الوحي وذهن ولغة المخاطبين، كما ذكر ابن أبي جمهور الإحسائي: «هدف المتكلمين إيصال المقاصد الدينية إلى فهم وإدراك طالبي العلم». فكلا التوصيريين (الآلي، والتوليد المعرفي) متفقان على اعتبار هوية الكلام وساطة، فالهوية الوساطية هي الوجه الجامع للتعرifications التي قدّمت لعلم الكلام.

يحتاج مخاطبو الوحي في استفادتهم منه إلى قسمين من الوساطة: وساطة في نزول الوحي، ووساطة في دركه وفهمه؛ الوساطة الأولى هم الأنبياء العظام عليهم السلام، أما بخصوص الوساطة الثانية فقد كان المسلمين في صدر الإسلام يراجعون الرسول عليه السلام والأئمة المعصومين عليهم السلام لدرك وفهم الوحي، ولكن بسبب الفواصل الزمانية والمكانية لا يستطيع جميع المسلمين الوصول إلى المعصومين عليهم السلام لتفسير المتنون الدينية بشكل مباشر، ولذلك فهم يحتاجون إلى أشخاص كي يسهّلوا عليهم فهم الوحي وجعله في متناول فهم وإدراك عقولهم، ويحتاج مخاطبو الوحي (الكتاب، والسنة) إلى فهمه وتفسيره في ثلاثة أمور: الفضائل والرذائل النفسية، وحسن وقبح السلوك الأخلاقي، والينبغيات واللابنويات المتعلقة بأفعال الجوارح والأفكار النظرية المتعلقة بارتباط الإنسان والعالم بالله.

تسمى الوساطة التي تستطيع أن تلبى هذه الحاجات الثلاثة للمخاطبين عن طريق تفسير المتنون الدينية بالتفقه بالدين وقد تشكلت تدريجياً ثلاث معارف إسلامية طبقاً للحالات الثلاثة المذكورة: الأخلاق الإسلامية، والفقه الإسلامي، والكلام الإسلامي. فالأخلاق الإسلامية هي المعرفة التي توصل الفضائل والرذائل الأخلاقية من المتنون الدينية إلى فهم ودرك البشر، والفقه الإسلامي هو العلم الذي يقوم باستخراج التكاليف والوظائف المتعلقة بسلوكيات الجوارح من القرآن والسنة وسائر مصادرها، والكلام أيضاً معرفة تقوم بتحصيل الاعتقادات الدينية المتعلقة بما يُسمى بالرؤى الكونية.

عبارة عن تحصيل المعرفة بالعقائد والاعتقادات الدينية، وتوضيح وفهم التعاليم الدينية وتصحيح العقائد الدينية، وإثبات تعاليم الوحي، ودفع الآراء المعاصرة. وتوضح الهوية الوساطية لعلم الكلام تمييزه عن سائر العلوم المتعلقة بالدين والاتجاهات المختلفة للبحث الديني. وما يعرف اليوم باسم فلسفة الدين، وتاريخ الأديان، وعلم الاجتماع الديني، وعلم النفس الديني،....، يفتقد إلى الهوية الوساطية؛ ففي هذا النوع من الأبحاث المحقق ليس في مقام تقديم المعرفة من الوحي، ولا يروج للتعاليم الدينية، وليس من شأنه الدفاع عن الاعتقادات الدينية. فيلسوف الدين على سبيل المثال يبحث في الأفكار الدينية من خارج الدين ودون الميل إلى التحقيق في الأفكار الدينية.

الهوية الوساطية لعلم الكلام تبيّن لواقعية أن دور المتكلمين هو إدامة للدور الرسالي للأنبياء والأئمة عليهم السلام، وما يعد حافظ وحدة الكلام الجديد والكلام القديم هي هذه الهوية الوساطية لعلم الكلام، فالكلام الجديد من حيث أنه كلام هو واسطة بين الوحي وذهن ولغة مخاطبيه، وليس من شأن المتكلم الجديد سوى عرض وتفهيم وإثبات وتعليم الأفكار الدينية.

٥ - نظرية الغرض التعليمي للوحي:

تظهر الهوية الوساطية لعلم الكلام أهمية الوحي في بناء هذا العلم، فالمتكلم يتحدث عن الوحي ويعرض تعاليمه، والوحي في الرؤية الإسلامية كلام إلهي وصل إلى البشرية عن طريق الرسول ﷺ. قال البعض أن سبب تسمية الكلام هو استناده إلى الوحي أو كلام الباري تعالى فالنظام الاعتقادي في الإسلام مستمد من كلام الله، وبناء عليه فكل تصور يمتلكه المتكلم عن الوحي مؤثرٌ في تشكُّل نظامه الكلامي.

من الأوجه المشتركة بين التصورين الأساسيين السالفين الذكر لعلم الكلام هو الانطباع الواحد نسبياً عن الوحي، يمكن تسمية هذا الانطباع الواحد قياساً بباقي الانطباعات بنظرية الغرض التعليمي للوحي، بناءً على هذه النظريّة يوجد للوحي هوية تعليمية فلم ينزل الله شيئاً لتعليم البشر سوى مجموعة من المعلومات والمعارف أنزلها عن طريق معلمين باسم الأنبياء، ومخاطب الوحي العقل البشري. وما يطلبه الوحي من البشر هو تصديق المعلومات والأخبار التي يتضمنها، وللروح دور توعويٌّ

أول ضلع للهوية الوساطية لعلم الكلام هو تحصيل المعرفة بالنسبة للتعاليم الدينية من الكتاب والسنّة، وهذا المعنى من الهوية الوساطية مشترك بين الأقسام الثلاث للعلوم الإسلامية (الأخلاق، الفقه، الكلام)، ويعود تفاوتها إلى متعلق المعرفة. فتعرض الأخلاق الإسلامية الفضائل الدينية المستندة إلى المصادر ويقدم الفقه الإسلامي الأوامر والنواهي والتکالیف الإلهیة مستندة إلى الأدلة الشرعية، ويعرض الكلام الإسلامي الفكر والاعتقادات القرآنية. والمراد من العرض هو الاستخلاص المنظم لرؤى القرآن والسنة بخصوص كل واحد من المجالات المذكورة، ومن ثم التقديم المنظم لها في قالب معرفي منسجم وواحد.

يوجد للهوية الوساطية لعلم الكلام أيضاً بعد آخر، ليس مطروحاً في العلمين الآخرين (الفقه والأخلاق): يطلب الوحي من مخاطبيه القبول والتصديق والإيمان. فإذا سأله المخاطبون. بعد العلم بتعاليم الوحي بخصوص أمر خاص متعلق بأحد المجالات المذكورة. عن دلائل هذا التعليم (الأمر أو النهي) من باب الاستطلاع لقبول هذا التعليم الديني، مما هي المعرفة التي ستتحبّب على استفسارهم؟ على سبيل المثال إذا سأله مخاطب الوحي بعد العلم بأن مجازة اللص قطع يده ماذا يوجد في الوحي تعليمٌ كهذا؟ فمن أي معرفة يحصل على إجابته؟

من المسلم به أن علم الفقه لن يجيئه؛ لأن الفقه يتكتل فقط بإعلان أن هذا الحكم من أحكام الوحي والسنة أم لا. يحتاج مخاطب الوحي في هذا المقام إلى علم يثبت لهم صحة واعتبار التعاليم الدينية ويدفع التعاليم المعاصرة، وهكذا وساطة هي وساطة دفاعية، والوساطة الدفاعية لا تنحصر فقط بالمقولات المتعلقة بالواقع والعقائد الدينية، خلافاً للوساطة التفهيمية بل تشمل جميع التعاليم الدينية وتحوي كذلك مجال الأخلاق والفقه، والهوية الوساطية لعلم الكلام تشتمل على مثل هذا المعنى من الوساطة أيضاً.

إذا أخذنا الهوية الوساطية لعلم الكلام بعين الاعتبار يمكن أن نرجع التصورين الرئيسيين له إلى تصور واحد شامل؛ لأن تحصيل المعرفة لا يتنافى مع الدفاع، وبين الهوية الدفاعية وهوية التوسيع توهم عدم انسجام وليس عدم انسجام حقيقي، وعلى هذا الأساس يمكن القول:

الكلام معرفة وساطية بين الوحي (الكتاب والسنة) وذهن ولغة المخاطبين، ودوره

للانسان، فهو يكشف له عن الحقائق ويطلعه عليها والإنسان صاحب العقل السليم يصل إلى الإيمان واليقين عن طريق تصديقها.

رغم أن التصورين الرئيسيين يستندان إلى نظرية الغرض التعليمي للوحي، إلا أنهما يختلفان في تفسير محتوى تعاليم الوحي.

يتصور مؤيدو الرؤية الدفاعية أن الحقائق الوحيانية هي ذاتها الحقائق الفلسفية، ويؤمن أتباع الهوية المعرفية بفكك الحقائق الوحيانية عن التعاليم الفلسفية، ومن وجهة نظر البعض فالحقيقة التي يقدمها الوحي هي في حقيقتها وليس شكلها المعرفة الفلسفية ذاتها، ويرى آخرون أن المعرفة الوحيانية هي معرفةٌ من نمطٍ آخر.

٦- الاستناد إلى الواقعية الأرسطية:

قام علم الكلام بناءً على الهوية الوساطية على ركين: الوحي، وذهن ولغة المخاطبين. وتحدد الهندسة المعرفية للكلام طبقاً للانطباع الخاص عن الوحي وذهن ولغة المخاطبين، ونجاح المتكلم في إيفاء دوره الوساطي رهنُ بمعرفة ذهن ولغة المخاطبين، فعلى المتكلم أن يوضح الأفكار الدينية بشكل قابل للفهم والقبول في أذهان المخاطبين، وهذا الأمر لا يتيسر دون امتلاك تصور واضح عن العقل البشري، وملاك العقلانية عند البشر.

الوجه المشترك السادس بين التصورين الرئيسيين لعلم الكلام تصور واحدٌ نسبياً عند هاتين الفئتين من المتكلمين عن العقل البشري وملاك العقلانية، فيؤكد التصوران على الواقعية والحقانية خارج الدين، ويعتبران العقل البشري قادرًا على فهم الإدعائات الدينية وقبولها، وهم يحكمون على أساس رؤية خاصة عن الواقعية في تفسير العقلانية والحقانية ونحن نسمى هذه الرؤية اليوم مقارنة مع الرؤى الواقعية الحديثة باسم الواقعية الأرسطية، فقد تم تأسيس النظم الكلامية على رغم تنوعها بناءً على رؤية واحدة للواقعية، وعلى هذا الأساس فهي تشد المعرفة اليقينية المطابقة للواقع.

المراد من استناد النظم الكلامية للقدماء على الواقعية الأرسطية أنها لا تبني طرق أحكامها واستطلاعها على تفسيرات أخرى للصدق كنظرية التلاؤم، والنظرية البراغماتية، ونظرية الإجماع، و....، بل يؤسسون ملاك الحقانية نسبياً على نظرية

المطابقة مع الواقع على أساس التفسير الذي قدمه أرسطو. وبالطبع فإن ميزان التزام المتكلمين بالأدلة العقلية وملاك الحقانية خارج الدين متباوت حسب الاعتقادات والمشارف الكلامية.

٧- التصور الواحد الشامل لعلم الكلام:

يمكن تقديم تعريف جامع وشامل لعلم الكلام على أساس الوجوه المشتركة بين التصورين الرئيسيين له: «الكلام معرفة وساطية بين الوحي بمنزلة كلام الباري تعالى:.. كما هو الأمر في الإسلام. وذهن ولغة المخاطبين، تقوم بتزويج وتعليم وعرض الفكر والإيمان الإسلامي».

من مقتضيات هذا التعريف تصحيف العقائد وتوضيح المفاهيم، والتبيين المنظم للاعتقادات، وإثبات التعاليم ودفع الآراء المخالفة.

هذا التعريف لا يشتمل فقط على التصورين الرئيسيين بل يشمل التعريف الذي قدمه المعاصرون؛ لأن عرض وتقديم الإيمان هو نفسه من الشؤون الوساطية بين الوحي والمخاطبين. وعلى أساس هذا الفهم لماهية الكلام سوف ثبت أن الكلام الجديد والكلام التقليدي لهم هوية واحدة لكن بهندسة معرفية متباوتة، كما أن الكلام المولد للمعرفة والكلام الآلي للدفاع لهم هوية واحدة وهندسات متباوتة.

قيد «الإسلامي» في هذا التعريف استدرك، وتم استعماله للتاكيد على ما يدل على الكلام، فالكلام من حيث المفهوم لا يعادل اصطلاحاتٍ من قبيل: علم اللاهوت، والإلحاديات والثيولوجيا.

ما تم تبيينه هو علم الكلام في مقام التعريف، أما ما هو متداول باسم الكلام في مقام التحقيق فهو نظم كلامية أطلق عليها اسم الكلام بسبب تمعتها بالهوية الوساطية السالفة الذكر ومع أنه من الممكن أن يكون لكل واحد من النظم الكلامية تحديد خاص بسبب الأضلاع المعرفية من قبيل: الطريقة، اللغة، المبادئ، المسائل، والاتجاه، وأن تتميز عن بعضها البعض لكنها لا تتفاوت فيما بينها في الهوية الوساطية، بمعنى أن كلام الشيعة، والمعتزلة، والأشاعرة، والماتریدية، و....، برغم هذا التنوع في الأضلاع المعرفية إلا أنها تعد جميعاً كلاماً، ونعدُ هذا التنوع تنوعاً في النظم الكلامية، وسوف نخضع التنوع الطولي للنظم الكلامية للبحث في الفصول اللاحقة.